« أغلوطـــة في المقدمـــة »

الدكتور رشيد الجميلي

قسم التاريـــخ

« أغلوطة في المقدمة »

الدكتور رشيد الجميلي

قسم التاريخ

حقا أن كتاب المقدمة للمؤرخ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) هو أحد الكتب المهمة في تراثنا العربي ، وتتجلى هذه الاهمية بصفة خاصة عند كل باحث جعل من الحضارة العربية الاسلامية ميدانا لبحثه ، وتأتي أهمية المقدمة من الموضوعات التي وردت فيها . ومع ما تقدم فاننا نرى ان مؤرخنا ابن خلدون ، قد ضمن مقدمته هذه أغلوطة رأينا ان من واجبنا التنويه عنها . أما موضوع هذه الاغلوطة فيتركز حول نفي ابن خلدون لكل ما قام به الامير الاموي خالد بن يزيد بن معاوية في مجال رعايته لحركة الترجمة أولا واشتغاله بالعلوم ثانيا . ولما كان واقع الامر هو على نقيض ما ورد عند ابن خلدون فسنبين فيما يلي وبايجاز ما بذله الامير الاموي من جهود في سبيل تنشيط حركة الترجمة وما رافق ذلك من انصرافه الى البحث العلمي وبخاصة في مضمار السيمياء (الكيمياء القديمة) ، ثم نتطرق بعد ذلك لما ورد عند ابن خلدون بهذا الصدد موضحين في ذات الوقت كيف ان مؤرخنا قد جانبه الصواب تماما فيما نحن بصدد بحثه .

يعتبر الامير الاموي خالد بن يزيد (المتوفى سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م) من أشهر الذين اهتموا بحركة الترجمة في المشرق الاسلامي في القرن الاول الهجري / السابع الميلادي ، بل ان الامير خالد كان أول شخصية في

الإسلام يأمر بترجمة كتب الطب والكيمياء والهيئة الى العربية ، كما انه كان أول عربي يبحث في العلوم العقلية ويظفر منها بمركز جدير بالنظر والاعتبار، ولعل ما خلفه من مؤلفات في هذا المجال ــ شهدت لها مصادرنا ــ لهي أقوى دليل مادي على ذلك • والواقع ان خالدا هذا لم يكن رجلا عاديا في تاريخ الاسرة الاموية ، وهذا هو ما نستشفه من خلال ما ذكره ابن النديم بحق صاحبنا الامير الاموي • ففي هذا السياق يذكر المؤرخ أبو الفرج محمد بن اسحق بن النديم (المتوفى سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م) : « أبو هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الاموي ، وكان من أعلم قريش بفنون العلم ، وهو الذي عني باخراج كتب القدماء في الصنعة ، وكان خطيبا شاعرا فصيحا حازما ذا رأي ، وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء ، وكان جوادا ، ويقال انه قيل له : لقد فعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة (علم الكيمياء) • فقال خالد : ما أطلب بذلك إلا ان أغني أصحابي وإخواني ، إني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني فلم أجد منها عوضا إلا أن أبلغ آخر هذه الصناعة فلا أحوج أحدا عرفني يوما أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة ، ويقال انه أصبح له عمل الصناعة ، وله في ذلك عدة كتب ورسائل وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه ــ والحديث هنا لابن النديم ــ نحو خمسمائة ورقة ، ورأيت من كتبه : كتاب الحرارات ، كتاب الصحيفة الكبير ، كتاب الصحيفة الصغير ــ كتاب وصية إلى ابنه في الصنعة » [1] • وبنفس المعنى يذكر المؤرخ أبو القاسم صاعد بن أحمد الاندلسي (المتوفى سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م) : « وكان خالد بن يزيد بصيرا بالطب والكيمياء ، وله في الكيمياء رسائل وأشعار بارعة دالة على معرفته وبراعته فيها » [2] • وفي تاريخ اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) في ترجمة خالد بن يزيد : « ... إنه كان عالما شاعرا وينسب إليه شيء من علم الكيمياء وانه كانت له معرفة بشيء من علوم الطبيعة » [3] • وكان لخالد بن يزيد الامير

الحكيم (فردوس الحكمة في علم الكيمياء) منظومة في قواف مختلفة وعدد أبياتها ألفان وثلاثمائة وخمسة عشر بيتا أولها الحمد لله الواحد الفرد الذي له العز والمجد ... الخ [٤] . وكان خالد يوصف بالعلم ، وقيل عنه قد علم علم العرب والعجم، وكان يقول: كنت معنيا بالكتب وما أنا من العلماء ولا من الجهال [٥] . ومن الباحثين المحدثين الذين يؤيدون الامير الاموي في رعايته لحركة الترجمة واشتغاله بالعلوم ، الاستاذ دي بور ، حيث يقول بهذا الصدد : (وكان خالد بن يزيد قد اشتغل بالكيمياء بارشاد راهب نصراني ، وانه أمر بترجمة كتب في الكيمياء من اللسان اليوناني الى اللسان العربي) [٦] . وفي هذا المجال أيضا يقول الاستاذ هولميارد : (كان خالد ابن يزيد أول من بحث في كتب القدماء ، وهو أول من ترجمت له الكتب القديمة في الطب والنجوم والكيمياء) [٧] . أما الباحثة الالمانية زيغريد هونكه ، فقد أوردت تعليلا طريفا لاسباب ترجمة خالد للتراث الاجنبي ، فهي تقول بهذا الصدد : (ولم يسترح خالد لاصدقائه الاوفياء ، الكتب ، وهم يتحدثون معه بلغات غريبة عنه ، فبدأ خالد ــ كأول حلقة في سلسلة عظيمة من دعاة الحركة العلمية ــ بدأ بدعوة المتعلمين من الاغريق والعرب من الاسكندرية وعهد إليهم بترجمة أعمال يونانية ومصرية الى اللغة العربية مصرا بذلك على ان يتعامل مع الثقافات المختلفة بلغته هو) [٨] . ومن الباحثين من بلغ إعجابه بالامير الاموي إلى حد التساؤل بهذا الشأن : هل هو واقع الظروف أو واقع ذكاء العرب الفطري أن يشغفوا بما يثير الاعجاب ؟ فقد أمر خالد بن يزيد بترجمة الكتب القديمة في الكيمياء إلى اللغة العربية ، وهذه كانت الترجمات الاولى ، وقد مضى عليها الآن ألف ومائتا سنة ، لكن هذا العلم (الكيمياء) على الرغم من غموضه ، انتشر بسرعة في الشرق كله ، وكان الكيميائيون يتكاثرون بسرعة عليه [٩] .

ان خالد بن يزيد كان أول من أضاء شعلة العلم عند العرب ، وفي هذا

العمل ذاته فضل وأي فضل، وكانت أول معرفة خالد بالعلم وخاصة الكيمياء في مصر حيث قام إليها بأسفار عديدة شغف خلالها بالكيمياء والاساطير التي كانت تكتنفها عن إمكانية تحويل المعادن إلى ذهب ، فأمر بترجمة كتب الكيمياء التي كانت معروفة في مدرسة الاسكندرية ، وكانت صناعة الكيمياء رائجة في ذلك الوقت في الاسكندرية (١٠) . ويبدو لي من خلال ما ذكرته معظم المصادر التي ترجمت للامير الاموي ، ان بعضا من مؤلفاته في مجال الكيمياء ، قد بقيت معروفة فيما بعد ولفترة طويلة (١١) .

لقد كان الامير خالد بن يزيد — دون شك — أحد الذين بحثوا في العلوم في القرن الاول الهجري ، وان تحمسه للعلم والمعرفة دفعه الى الحصول على مصنفات الاغريق والسريان (١٢) .

والآن وبعد ان استعرضنا وبايجاز شديد ، الدور الذي لعبه الأمير الاموي في مجالي الترجمة والعلوم ، وبعد أن بينا البعض من آراء الباحثين قديمها وحديثها ، مصادرها ومراجعها ، نأتي الى بيان من يرى غير ما ذهبنا إليه آنفا بخصوص رعاية خالد بن يزيد لحركة الترجمة أولاً واشتغاله بعلوم الاقدمين ثانيا ، حيث يعمد صاحب هذا الرأي الى نفي كل ما ذكرنا عن الامير الاموي بصفة خاصة والحركة العلمية في هذا الوقت (القرن الاول الهجري / السابع الميلادي) بصفة عامة . ونحن لنا رأينا بعد أن نتبين هذا الرأي . والواقع ان صاحب المقدمة هو من قصدناه آنفاً . فقد كان مؤرخنا هذا المصدر الوحيد الذي لم نجد له مثيلا بين جميع المصادر التي ترجمت للامير الاموي والذي ينكر على خالد بن يزيد أمر رعايته للترجمة واشتغاله بالعلوم ، فهو يقول بهذا الخصوص : « ... وربما نسبوا بعض المذاهب والاقاويل فيها (الكيمياء) لخالد بن يزيد بن معاوية ... ومن المعلوم البين ان خالدا من الجيل العربي والبداوة إليه أقرب فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على

معرفة طبائع المركبات وأمزجتها وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم الا أن يكون خالد بن يزيد آخر آهل المدارك الصناعية تشبه باسمه فمسكن ... » (١٣) . ونحن نرى ان من المناسب هنا ، وقبل أن نأتي على بيان رأينا في هذا الموضوع ، ان نرد على مزاعم من يحاول أن يغمط حق صاحبنا في هذا المضمار بدليل آخر يضاف الى مجموعة الادلة التي تدعم قولنا بحق الامير الاموي في رعايته للترجمة وانصرافه الى البحث في العلوم القديمة . ودليلنا الجديد ليس هو الدليل الاخير في هذا السياق . ومن جهة ثانية فاننا لسنا بحاجة بعد الى أي شيء من هذا القبيل ، وان ما أوردناه آنفا يفي بالغرض المطلوب بل واكثر من ذلك بكثير .أما دليلنا هذه المرة فيمثله ابن النديم أيضا الذي يقول بهذا الشأن : « كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلا في نفسه وله همة ومحبة للعلوم ، وهو الذي أمر بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، وهذا أول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة ... » (١٤) . وأخيرا فاننا نرى ان الامير الاموي ـ واستنادا الى ما أتينا على ذكره من مصادر نعتمد عليها في دراستنا للتاريخ الاسلامي ـ كان أول من رعى أمر الترجمة ، بل هو أول من بحث في العلوم القديمة وبخاصة الكيمياء في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، وان أي رأي آخر ـ سواء أكان قديما أم حديثا ، مصدرا أم مرجعا ـ يخرج عن هذا الرأي ، يتنافى تماما وحقيقة ذلك الاجماع القوي للمصادر والمراجع في تأييد صاحبنا التام والمطلق في كل ما تطرقنا إليه آنفا ، خاصة وان التكهن لا غير هو دليل من يخالفنا رأينا هذا .

الهوامش

(١) ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ (لايبزك ، ١٨٧١) .

(٢) صاعد الاندلسي : طبقات الامم ، ص ٦٣ (النجف الاشرف ، ١٩٦٧).

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٨٠ (بيروت ، ١٩٦٦) .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون ، جـ ٢ ، ص ١٢٥٤ (طهران ، ١٣٧٨ هـ) .

(٥) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٣٥٢ (القاهرة ، ١٩٦٥) .

(٦) De boer : The History of Philosophy , P. 17 , London, 1953

(٧) Holmyard : Makers of Chemistry , P. 43 , Oxford, 1937 .

(٨) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩ (بيروت ، ١٩٦٦) .

(٩) جاك ريسلر : الحضارة العربية ، ص ١٧٢ (القاهرة ، ١٩٦٠) .

(١٠) جلال مظهر : أثر العرب في الحضارة الاوربية ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ (بيروت ، ١٩٦٧) .

(١١) انظر ابن النديم : الفهرست ، ص ٣٥٤ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦ (بيروت ، ١٩٦٩) .

(١٢) A buthnot : Arabic Authors, P. 40 , London, 1890

(١٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٠٥ (القاهرة ، بدون تاريخ) .

(١٤) ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٤٢ .

بحـوث